الشاذون وفضلهم

من مقالة للعالم انريكو فري الايطالي نشرها في مجلة المجلات الفرنسوية

اذا رأى المرء شيئًا لم يرهُ قبلاً فقد يتوهم انهُ لم يوجد قبل ان رآهُ ويبني على وهمهِ هذا نتائج غريبة في بابها. مثال ذلك ان الميكروبات وُجدت قبل ان اكتشفها باستور بالوف من السنين غير ان معرفتنا بها في هذه الايام ولّدت فينا الخوف منها حتى صرنا في قلق مستمر من الماء الذي نشربهُ والهواء الذي نتنفسهُ ومن طوابع البريد التي نلصقها على المخاطبات فنبلها بالماء عوضًا عن بلها بالسنتنا كأن الميكروبات صارت اضرّ بنا بعد ان اكتشفناها مما كانت وهي مجهولة لدينا

والواقع ان تقدُّم علم البكتيريولوجيا وزيادة معرفتنا بالميكروبات واحوالها سيجعلاننا في مأمن منها فقد وجد ان بينها انواعًا مفيدة جدًّا وانهُ يمكن انقاذ الضار منها بالنافع وبالوسائط الهيجينية. ولا بد ان تألف الفكر بانها موجودة دائمًا فينا فلا نعود نخشاها لان جسد الانسان لا يخلو منها ابدًا ومرضهُ وصحتهُ يتوقفان على حالة جسمهِ العمومية فاذا كان قويًّا قاوم الميكروبات القتالة وتخلص منها والاّ اوردتهُ حتفهُ

ويشبه اعتقادنا بالميكروبات بعد اكتشافها ما نعتقدهُ اليوم بميكروبات الهيئة الاجتماعية وهم الذين شذوا عن القياس ككبار المجرمين ونوابغ الرجال بعد الذي كتبهُ عنهم علماء الاخلاق من مورل الى لمبروزو . وهؤلاء الشاذُّون لم يخلُ منهم مكان ولا زمان لكنّا كنا اذا قرأنا شيئًا عن نيرون ومذابحهِ الفظيعة او عن غيرهِ من القتاة خلنا ذلك امرًا مخالفًا للمألوف مخالفةً زيّ قديم للازياء الجارية الآن وعللناهُ بقولنا انهُ شذوذ من شواذ الطبيعة . اما الآن وقد درس العلماء احوال هؤلاء الاشخاص وقابلوهم بجمهور الناس فاتضح لهم وجود نوع من الناس لم يحلموا بهِ قبلاً وتحققوا ان بني آدم قسمان شاذُّون واعتياديون او غير شاذين

اتفق منذ مدة اني زرت الاستاذ لمبروزو في تورين وبينما نحن نبحث في ما كُتب حديثًا في علم الاخلاق اتاهُ تلغراف من جريدة النيويورك هرالد تسألهُ فيهِ ان يوافيها بجواب تلغرافي طويل على السؤال الآتي وهو "ما هو الانسان الاعتيادي" وتعدهُ باجرة كبيرة عليهِ. وسبب طلبها هذا ان الجرائد الاميركية كانت تكتب اذ ذاك المقالات الطويلة اثناء المحاكمة في حادثة قتل مهمة وتنشر صور القتلة الواردة في كتاب الاستاذ لمبروزو عن "الرجل الجاني" وفي كتابي "عن القتل" . ولا بدَّ من ان قراء النيويورك هرالد خاب انتظارهم لما طالعوا

جواب الاستاذ لمبروزو لانهُ عوضاً عن التغني بمدح الانسان الاعتيادي او غير الشاذ وصفهُ وصفاً تافهاً كقولهِ انهُ " يأكل جيداً و يشتغل كثيراً وهو محبٌّ لذاتهِ مواظب على اعمالهِ صبور اليف ". وما اشبه هذا بما وصف بهِ فكتور هن الرجل العادي فقد قال انهُ ابن العادة عاقل حائز للفضائل التي من الدرجة الوسطى يعيش عيشة راضية لقلة حاجاتهِ

وقد قال مورل في كتابهِ بوجود مثال كامل للانسانية موافق لمعتقداتنا حتى يصحّ ان يقال ان انحطاط طبيعتنا هو نتيجة الابتعاد عن هذا المثال الكامل . اما العلم الحديث فقد اثبت ان الابتعاد عن هذا المثال ليس دائماً دليل الانحطاط بل قد يكون مصحوباً بالارتقاء . وليس للانسان الاعتيادي صفات ذلك المثال الكامل الذي ورد ذكرهُ في كتب الدين بل هو نتيجة الانتخاب الفردي والاجتماعي ويختلف باختلاف احوال المجتمع الذي يعيش فيهِ و يتغير بتغيرهِ . ويصح ان يقال ان الانسان الاعتيادي اشبه بالثياب التي تباع جاهزة فهي تغطي الجسد ولكنها لا تصلح لشخص معلوم . فهو كائن حي ينمو و يتوالد ويورث ما ورثهُ من العقائد الفاسدة ولكنهُ لا يمتاز على من سواهُ بشيءٍ من الاشياء واذا تصفحتَ كتب التاريخ لم تجد فيها ذكراً لغير الشاذين من الناس كالمجرمين والطالمين او الذين امتازوا على غيرهم بالعلم والفضل اما الرجال الاعتياديون فلا يدري احد من اخبارهم شيئاً واذا صحّ ما قالهُ نابوليون الاول عنهم امكننا ان نشبههم بالمشاة في الجيش الانساني

ولا ريب ان العالم مديون للشواذ بما ادخلوهُ فيهِ من الاصلاحات العظيمة وهم على نوعين النافع والضار و يدخل تحت الاول جميع الذين سعوا في ترقية الهيئة الاجتماعية وتحت الثاني ذوو المطامع الذين لم ينظروا الاَّ الى مصالحهم الذاتية والمعتوهون والمجرمون ونحوهم من الذين اضروا بجسم الاجتماع الانساني ولكنهم قليلون بالنسبة الى النوع الاول

فالعالم مؤلف من مقدار صغير من النفايات يعيش عليها ويحيط بها جمهور الناس الاعتياديين وفوقهم الشواذ النافعون يديرون اعالمهم و يرفعونهم الى الدرجات العليا . والشاذ النافع هو من كان قليل المقاومة للافكار الحديثة محباً لتغيرها لهُ غاية يسعى اليها بهمة ونشاط وثبات رغماً عن العقبات التي تلقيها في طريقهِ المعتقدات القديمة التي يتمسك بها العوام تمسكاً شديداً

والنابغة هو الشاذ الذي يرى رأياً جديداً فاذا لم يكن في جو العالم الانساني العناصر اللازمة لنموهِ اضمحلَّ وتلاشى ويقاوم الاعتياديون هذا الرأي الجديد اشد المقاومة غير ان سعي صاحبهِ في سبيل تحقيقهِ وتضحيتهُ كل شيء في ذلك السبيل وتطرفهُ فيهِ كل هذا يضمن لهُ الظفر في الختام رغماً عن الهزء والاضطهاد

ومهما يكن في هذا القول من الغرابة فهو مطابق للواقع . فقد نشر شخص يدعى اراسموس من اهالي روتردام في هولاندا في اوائل القرن السادس عشر رسالة سماها "مدح الجنون" اشتهرت في زمانها كثيرًا . وقد شجعتها مدرسة السربون في باريس حال نشرها اما رومية فامهلتها طويلاً لان البابا ليون العاشر قال لما قرأها "ان في مؤلفها طرفًا من الجنون" ولم يزد على ذلك . قال المؤلف في اهداء الرسالة الى صديقهِ توماس مورس "للجمهور وحدهُ حق الحكم على مؤلفي هذا غير اني ارى اني لم اكن مجنونًا تمامًا حينما انتهُ في مدح الجنون"

وقد بحث اراسموس في هذا الموضوع من الوجهة الادبية غير ان مؤلفهُ لا يخلو من بعض الامور العلمية وهاك بعض ما جاء فيهِ عن لسان المجنون دفاعًا عن نفسهِ : —

" اذا صح ان الحكمة هي معرفة كيفية التصرُّف في الاشياء فمن يا ترى يصح ان يدعى حكيمًا — ألرجل الذي لشدة تحفظهِ وخشيتهِ لا يجسر ان يشرع في عمل ما او المجنون الذي لا يوقفهُ خطر ينكر وجودهُ او حذر لم يشعر بهِ قط عن الإقدام على الاعمال . الحكيم لا يستفيد من كتب الاقدمين سوى كلمات مركبة اما المجنون فيكتسب الحكمة الحقيقية وسط الاخطار واضطراب الاعمال وقد صدق هوميروس بقولهِ — ان المجنون يتعلم على نفقتهِ الخصوصية

"وفي طريق الانسان الى الاختبار حجرا عثرة اولهما الوجل الذي يظلم الافكار ويضيع الوسائل وثانيهما الخوف الذي يكبر المصاعب فيصرف النفس عن مقاصدها العظيمة اما المجنون فلا توقفهُ هاتان العثرتان

"ان الرواقيين (١) انفسهم لم يحتقروا الملذات واذا كانوا قد شجبوها امام الناس فما ذلك الا ليصرفوهم عنها ويحفظوا الطيب منها لانفسهم . وهل يجسر اولئك المراؤن ان ينكروا ان كل يوم من ايام الحياة حزن وشقاء اذا لم يضع المجنون شيئًا من المسرَّة فيهِ . الم يقل سوفوكليس ان الحياة لا تكون سعيدة الاَّ متى غابت الحكمة (او بعبارة الشاعر العربي ما لذة العيش الاَّ للمجانين)

"والجنون نوعان اولهما ما ترمي بهِ الجن الى الارض فتشتعل الحروب ويسعى الناس وراء المال ويقتل الولد اباهُ ويرتكب الانسان الموبقات . والثاني بخلاف الاول نعمة للجنس البشري يظهر بهيئة وهمٍ تعشقهُ النفس فيزيل منها الهواجس والشجون فتنهمك في الملذات العقلية والادبية فليس من الحسن ان يسمَّى كل نوع من الانحراف العقلي جنونًا "

(١) وهم طائفة من الفلاسفة يعتقدون انهُ يجب على الانسان ان لا يفرح ولا يحزن

فما رآهُ ارسطوس من الفرق بين الشاذ النافع والشاذ المضر ووصفهُ بعبارة اقرب الى الشعر منها الى غيره قد اثبتهُ العلماء اليوم بالادلة العلمية

والشاذون من النوع المفيد اشبه بالفراش يحومون حول جميع الانوار فاذا اتفق ان النور كان آلاً كاذبًا اي كان غرضهم دنيئًا او تقصد بهِ مصلحة ذاتية كان اولئك الشاذون كمن يربي طفلاً لا ترجى لهُ الحياة . ولا يمنع هذا ان الشاذين النافعين هم سبب ارتقاء الحياة الاجتماعية لانا بواسطتهم اكتشفنا ما كان مجهولاً وتحررنا من رقّ الجهل والقباوة

وما ذكرهُ لمبروزو عن "نفع الجرائم" وارتآهُ العالم وركيم من ان الجنايات هي احد الشروط الصحية للمجتمع الانساني صحيحان ولكن يجب ان يراعى فيهما الفرق بين الجرائم المضرة والنافعة فالاولى اشبه بمرض في الجسم الانساني اما الثانية فلا وعلى نجاح الثانية يتوقف حسبانها من الاعمال الممدوحة او المذمومة فالثورة السياسية او الاجتماعية امر حميد اذا نجحت وامر مذموم اذا حبطت

وماذا نقول في النوابغ ؟ قال الاستاذ لمبروزو ان النابغة هو من شذّ عن الحالة الاصلية وهو قول صحيح كاد يقبلهُ الرأي العام لانهُ رآهُ مثبتًا بالدليل العلمي . فالنوابغ اناس شذوا عقلاً وجسمًا لكنهم ما برحوا برهانًا قاطعًا على فائدة هذا الشذوذ وشذوذهم عقيم لانهُ لا يولد منهم اناس مثلهم لكن قوتهُ لا تفرغ الاَّ بعد ان يكون قد اضاء مشعلاً من الحقائق المجهولة انار بهِ جمهورًا غفيرًا من العامة او من الناس الاعتياديين . ومن غير الشواذ يغير القديم من التقاليد والعقائد ويزيل الخوف من السلطة والاستعباد لبعض الشواذ المضرين . فعلينا اذًا ان نعيد الى الشواذ حقوقهم المسلوبة وان نغير الرأي العام فيهم كما قد غيرناهُ في الجمال فصرنا نفضل عدم النظام على النظام ونفضل المرأة ذات الجمال الشاذ على ذات الجمال العادي

ويصعب علينا ان نبطل احترام الناس للاعتياديين فهو قديم جدًّا وقد مضى عليهِ قرون عديدة لم ينقطع فيها الاَّ فترات قليلة حينما قام الشواذ وغالبوا العقائد القديمة وحاولوا نسخها

وقد استنتج امون ولابرج من ابحاثهما في علم الانثروبوسيولوجيا (الذي يستخدم مقياس الراس لمعرفة الارتقاء الاجتماعي) ان الناس الشقر ذوي الرؤوس المستطيلة هم الواسطة لترقية الجنس البشري ولذلك يستحقون وحدهم ان يتناسلوا . ثم اذ رأيا من ابحاث بروكا ان الانتخاب الاجتماعي يقضي على الشواذ بالموت في حال الفوضوية او بالفقر ويسهل التناسل المرضي قالا بوجوب الانتخاب القانوني اي انهما تدبرا ما قالهُ داروين وغلتون وهايكرفت عن صعوبة الاعتناء بالمرضى وذوي العاهات وقالا بمنع تناسل مثل هؤلاء وبايجاد نسل نوعي مشابه

للمثال الكامل الذي وصفهُ مورل . وفي ذلك ما فيهِ من جعل الناس كلهم اعتياديين ومنع تولد الشذوذ

ولم يرتقِ الانسان من حالة البهيمية عندما كان يسكن الغابات ويصل الى حالهِ الحاضرة الاَّ بفضل الشواذ . وللانحراف عن الاصل وجهان احدهما قبيح ضار والآخر جميل نافع

فلنتخلص من الاعجاب بالانسان الاعتيادي ولنتعود النظر الى الشاذين بلا خوف ولا احتقار ولندافع عن الضارين منهم معاملين اياهم بالشفقة لا بآلات التعذيب التي ورثناها عن القرون الوسطى ولنُعِد الى الشاذين النافعين حقوقهم فقد نفحوا الانسانية بكثير من النعم والمواهب

نسيم بربارى

اللغة المكتوبة واللغة المحكية

لا مراء في أنَّ للُّغة العربية الفصحى او العربية المكتوبة جانباً امنع من حمى كليب واعزّ من جبهة الأسد فما رَمَقها قطُّ واحد بنظرةٍ او رماها بزهرةٍ الاَّ صلاهُ انصارها نارَ حربٍ زبون يهون عندها شرب المنون ولو استطاعوا لقلعوا عينيهِ وقطعوا يديهِ . إذاً فليتقاضَ حضرة القاضي ولمور عن نفسهِ وليقس ما لقيهُ في يومهِ بما اصاب غيرهُ في امسهِ . فيرى في الحال صحة الخبر . ويصغر في عينهِ الخطب على الأثر ويعلم انهُ لم يكن اوَّل سارٍ غرَّهُ قمر

اشار المقتطف في باب التقريظ والانتقاد من الجزء الماضي الى الكتاب الذي وضعهُ حضرة القاضي ولمور في اللغة الانكليزية وجمع فيهِ اللغة المحكية في الديار المصرية قاصداً بذلك تسهيل نشر العلوم والمعارف في اللغة العربية (المحكية) وتقريب منالها على الاجانب واشار على الصحف العربية بأن تأخذ أخذهُ وتنبذ اللغة المكتوبة وتستبدلها بالمحكية حتى اذا عملت باشارتهِ وضافرها على ذلك اهل الحل والعقد قُضي على اللغة المكتوبة ونيل من ضرّتها الغاية المطلوبة

فشنَّ عليهِ ارباب الاقلام غارة شعواء وفيَّلوا رأيهُ وعدُّوهُ اسخف الآراء . ولشدة حنقهم منهُ وموجدتهم عليهِ حسبوا انهُ اوَّل مخترق لحجاب العربية المصون وانهم هم اوَّل من حمى ذمارها وذاد عن حياضها . وما او تاروا أنَّ كثيرين غيرهُ طرقوا قبلهُ هذا الباب واعترضهم حماة اللغة وانصارها مدافعين مناضلين . وسيظلُّ هذا الباب معرَّضاً للقرع والطرق حتى يزول الخلاف بين الضرتين ولا يبقى اثر لهذا الفرق